دراســـة :

بقلم الأستاذ الكبير : عباس محمود العقاد

يندر ان تعرف امة عظيمة من عشرين قصة صغيرة كما تعرف الهند من هذه القصص العشرين ، التى تبتدىء القصة منها وتنتهى فى بضع صفحات .

لان القصة الصغيرة كما يكتبها الغربيون اليوم ، تدور على غرض او غرضين لا يستوعبان احوال الامة فى جملتهـا ، فهى فى الغالب صورة خاطفة لحالة عارضة او تخطيط سريع لملامح وجه عابر بين الوجوه الكثيرة ، والقصة التى تدور على غرض من هذين الغرضين تتشابه فى البلاد المختلفة ، ولا تبلغ مبلغها من الدلالة الوافية على الأمة التى تكتب فيها الا اذا اجتمع منها عشرات ومئات فى حيز واحد . ففى هذه الحالة تتعدد الملامح وتتكاثر الوجوه حتى تحيط بأحوال الأمة فى جملتها ، وتعطى القارىء أشتاتا من الصور المتفرقة التى تجتمع فى البيئة الواحدة ، ولا سيما البيئة التى تطوى جوانحهـا على أمة كبيرة .

أما عشر حالات ، أو عشرون حالة ، يتناولها القصاص عرضـا من هنا وهناك ، فهى لا تكفى لتصوير أمة كاملة ، ولعلها تتكرر فى كل أمة على نحو متقارب يشـاهده من شـاء فى احدى الأمم كما يشاهده فى جاراتها او فى الأمم البعيدة عنها .

وليست كذلك **هذه القصص العشرون** .

فهـذه القصص العشرون لا تخرج فى مجموعهـا من غير الهنـد

الخالدة ، ولا تستطيع أن تنقلها من بيئة الى بيئة ولو غيرت ما فيها من أسماء المواقع وعناوين العادات ، بل نحسب أن نقل قصة واحدة منها الى بيئة أخرى أعسر من نقل مجموعة قصصية واسعة تكتب فى أمة فتنسب الى أمة أخرى .

لم كان هذا الفارق بين القصة الصغيرة فى الهند وبين القصص الصغيرة فى الأمم المعاصرة التى تكثر منها بجميع الأساليب وعلى مختلف الالوان ؟

نحسب أن السبب الاكبر يرجع الى طبيعة الأمة ، وأن السبب الذى يليه يرجع الى عراقة القصة فى الآداب الهندية .

فالهند فى تاريخها الطويل قد عالجت مشكلة الوجود العظمى ، وجعلتها فى الطليعة بين مسائل العقيدة ومسائل المجتمع ومسائل الحياة الفردية ، وقد طال عهدها بعلاج هذه المشكلة من الناحية الوجدانية والناحية الاجتماعية ، ومن ناحية الحياة الخاصة ، حتى غلب طابعها على كل طابع تبرزه الصيغة المحلية أو الصبغة الشخصية فى كاتب من الكتاب أو أثر من آثار الكتابة .

***

أما عراقة القصة فى الآداب الهندية فهى من تواريخ الادب المفروغ منها .. فليس أقدم من الملاحم الهندية المنظومة أو المنثورة التى تروى لنا حوادث البطولة المشتركة بين الأرباب والبشر ، وليس أنضج من قصص الهند الصغار التى تساق فى قالب المواعظ أو تروى للتسلية وتزجية الفراغ .

ونحن قراء العربية نعلم أن كتاب «**كليلة ودمنة**» من أدب الهند ، وأن « **شهرزاد** » راوية « **ألف ليلة وليلة** » قد استعارت بعض لياليها من الهند عن طريق اللغة الفارسية ، وأن نوادرنا التى سمعناها فى طفولتنا لا تخلو من مسحة هندية ، لانستغرب أن تتسرب الينا من البلاد التى عرفنا أرقامها وعرفنا أباذيرها ، وعرفنا

انها مصدر « المهند » و « الزنجبيل » . ويخيل الينا ان العبقرية الهندية التي أوحت الى شهرزاد ماأوحت من قصص « الف ليلة وليلة » ، لاتزال باقية على عهدها كما كانت قبل عشرات القرون.

ففى هذه المجموعة قصة باسم « **الاخوات السبع** » تطرح بها فى غمار الليالى فتجد لهـا مكانا فى كل سلسلة من طرائف شهرزاد التى تلقيها قبل كل صباح

ومتى كان فن القصة بهـذه العراقة فى آداب الأمة ، فليس من السهل أن تجرد القصة الكبيرة أو الصغيرة من طابعها الملازم لهـا فى اجيالها المتعاقبة ، وليس من العسير على الكاتب الهندى أن يروى قصته ـ بالغة مابلغت من القصر ـ فيتمكن بفطرته من تضمينهـا تلك الاغراض الـكبيرة ، التى لا تنقـاد لكتاب القصص الصغار فى الأمم الأخرى بهذه السهولة .

***

وكلّ قصة من هذه القصص العشرين كان يكفى القارىء منهـا ـ على حسب قواعد هذا الفن ـ أن يلمح على جناح السرعة وجها مخططا فى موقف من المواقف العاجلة ، فلا يميزه بشخصية مستقلة ولا يربطه بمشكلة من المشاكل الاجتماعية أو مشـاكل الوجود العظمى التى نحسبها من مشاكل الانسانية الخالدة .

الا أنك تقرأ القصة الصغيرة فتأخذ منها فوق الكفاية من مثيلاتها فى اللغات الغربية .

تقرأها فتعرف منها « **شخصـية انسانيـة** » مميزة بملامحهـا الواضحة ، غير مقصورة على الخطوط الغامضة فى زحام الصـور والأشباح .

وتقرأها فتلم منها بمشكلة اجتماعية من مشاكل الأسرة أو مشاكل الرزق ، أو مشاكل الاختلاف بين العرف القديم ومطالب العصر الحديث .

وقد تقراها فتلم منها بجانب من جوانب الصراع الدائم بين الخير والشر ، او بين الشرف والنذالة ، أو التدبير والمصادفة فى تسيير مقادير الاحياء .

ومهما يكن من تشاؤم الكاتب واغراقه فى تمثيل الشرور المطيفة على بنى آدم وحواء – أو على بناتها – بصفة خاصة ، فانك لتراه فى زاوية من الزوايا المطوية مؤمنا بوجود الخير بين طوايا النفس البشرية ، مشتدا فى تزويدها بعدد المقاومة والثبات فى وجه الرذيلة وغوايتها ، منتهيا الى نهاية قد تكون فيها الهزيمة للشرف ، كما نرى فى قصة «**أقوى من الشرف**» ، واضطرار بطلتها الى التسليم بعد حين لضرورات العوز والجوع ، ولكن المقاومة هنا أدل على وجود الخير من ذلك الانتصار الذى يحرزه الشرف بغير عراك ، وبغير فضل الشرفاء والشريفات على الأدنياء والدنيئات .

***

وفى قصة « **ثمن السعادة** » يسلم الكاتب بطلته للغواية السهلة فتترك زوجها ويتركها بغير داع ذى بال يفرض عليهما ضرورة الانفصال ، ولكنهما اذا عادا الى اللقاء ، كان هو ضريرا لا يطلبها ولا يبحث عنها ، وكانت هى امرأة مطرودة مشردة يوشك أن يصيبها التذم بجنون لايشفى ، فتعود اليه راضية بجزاء العطف عليه والتكفير عن هجرته بالسهر على خدمته ، ويتقبلها هو اشفاقا عليها من دنس الابتذال وبلاء الجنون .

وفى احدى هذه القصص يجرى الكاتب مع الواقع فيرينا أن الطفل الذى نلقيه بالملك الطاهر قد يسرق ، وأن طفلا مثله نلقيه بالملك الطاهر قد يقسو ويلعب بالقسوة ، وان الحسان « الملائكيات » قد يقع بينهن من الغدر والمكيدة مايغبطهن عليه الشياطين .. ولكن هذا الكاتب الممعن فى الواقعية يرينا الواقع كما هو ، ولا يرينا اياه شرا محضا ولا الما صرفا ولا ظلما مستعصيا على الانصاف .

ففى اقصوصة « **كيد النساء** » هذه ، طفلة يغريها جمال الدمية الساحرة فتسرقها من زميلتها الغنية ، وتلاحقها الزميلة الغنية ـ هى وصويحباتها العزيزات ـ بصيحات التعيير والتشهير ، ثم يضرب الزمن بينهما بضرباته فتلتقيان بعد حين على غير علم منهما غريمتين متنافستين على حب فتى من أقارب الفتاة الغنية ومن زملاء الفتاة الكاتبة ، وتفطن القريبة لما بين الفتى والفتاة من المودة التى تشبه الحب والغزل ، فتخطر لها قصة السرقة القديمة وتسائل نفسها : « **ما بال هذه السرقة المنسية لا تعاد فى صورة منقحة على حسب اختلاف السن والمناسبة ؟** »

وتسقط خاتمها النفيس فى حقيبة غريمتها الزائرة ، ثم تكتشفه على مشهد من الزائرات المتأففات . ثم يكتشف الفتى حقيقة « المؤامرة » فيلتفت الى الموقف الذى خلقه هو على غير قصد منه ، فاذا هو يهتدى ـ قاصدا فى هذه المرة ـ الى المخرج العادل من ذلك الموقف الظالم ، وتنتهى القصة فى غير تعسف ولا تلفيق من المؤلف الى انتصار الفتاة البريئة وهزيمة الفتاة الماكرة ، كما يحدث فى الواقع كثيرا من الاحيان

***

وفى قصة أخرى يجرى المؤلف كذلك مع الواقع فيأتى بالشر على يد انسان لطيف ، ويأتى بالخير على يد حيوان طريد حقيق بالانتقام . ومدار القصة على قردة يعنى بها صاحب الدار وتغار منها صاحبة الدار ، فتشردها فى الجبال خلال نزهة عند سقوح الهملايا ... وتهب العاصفة والزوجان فى دار من دور الصور المتحركة لا يؤذن فيها بدخول الاطفال الرضع ...

ويهرول الأبوان الوجلان الى الخيمة فى سفح الجبل فاذا هى ذاهبة مع المطر والريح . وينظران فى يأس وفزع فاذا بالقردة مقبلة من بعض الكهوف وبين ذراعيها صديقتها الطفلة الناجية ، التى

انقذتها حيوانة غلب فى نفسها عرفان الجميل والفة العشرة على شراسة الغضب وحب الانتقام .

وربما انطلق المؤلف مع شرور الحياة الى غاية ماتنطلق اليه ، كما نرى فى قصة « **ابن السكير** » وقصة الراعي والراعية .

فابن السكير يقتله ابوه بضربة طائشة لانه ذهب الى المدرسة فكان ذهابه اليها تنبيها للغافلين من شياطين التلاميذ الى مطاردة السكير نفسه وازعاجه من سكرته بصيحات . **ابن السكير** !.. **ابن السكير** .

***

وفى القصة الاخرى يحب فتى راع فتاة راعية ويلقاها بعد فترة طويلة فيهرب منهما جدى من الجداء وهما يتناجيان فى غفلة من القطيع ، ويعلم الفتى عقاب الراعية التى تغفل عن قطيعها فيهرول وراء الجدي الهارب ويهوى معه الى القاع جثتين مهشمتين!.

غاية الشر الذى يبتلى به الانسان من صروف هذه الحياة ، ولكنه شر لا يعلمنا ان الحياة كلها بلاء ولا أنها بلاء فى غير معنى ... لاننا لا نخرج بغير معنى من قصة يبوء منها السكير بتلك الوصمة بل بتلك اللعنة ، ولا نخرج بغير معنى من قصة تتسابق فيها التضحية والشهوة والموت والجشع، فتتقدم التضحية بينها الى مكان الطليعة السابقة بغير عناء وبغير كلفة وبغير تلفيق

وقد يرد على الخاطر أن هذه المشكلات النفسية او الاجتماعية تقحم على القصة اقحاما لا يجيزه سياق الحادث ولا حكم الفن فى موضوع هذه الاقاصيص الصغار .

الا أن الواقع ايضا انك تقرأ الاقصوصة فلا تلمح فيها اقحاما ولا اعتسافا لحادث من الحوادث ولا لعظة من العظات ، بل تعرف الحادث من سياق الحوار أو من اشارات الحديث ، وتغنيك اجادة الكاتب فى حبك القصة عن فضول القول او عن تكلف العظة والاعتبار

في غير موضعه ، ونحب ان تحاسبه على شيء من مخالفة الواقع في سبيل الحبكة أو في سبيل الموعظة أو في سبيل التأثير والتهويل فلا نستطيع ، لان الواقع الذي نشاهده امامنا يرينا الكثير من امثال هذه الحوادث خالصة في لبابها من شوائب التأليف أو شوائب التلفيق والتكليف .

***

واصدق مايقال عن هذه الاقاصيص العشرين أنها ـ مع اتقان الفن ـ قد أفلحت في تصوير النفس البشرية وتصوير البيئة الهندية . فهي في **أسلوب الاقصوصة تجارى أحسن الاساليب المأثورة في الآداب العالمية ، وهي بعد هذا صورة صادقة من الواقع في الهند ، وفي نفس الانسان .**

واذا كان من الجائز في بعض الوقائع المشاهدة أن نقول عنها انها غريبة نادرة وانها لاتجري مع المألوف في جميع الاحوال ، فلاشك انه من الجائز أيضا أن يقال عن القصة المؤلفة انها خضعت لمشيئة المؤلف بعض الشيء في محاولة التأثير أو الاقناع ، وانه قد احتال على الحادثة حتى جرت على هواه وفقا لما ارتآه .. ولكنه اذا كان لابد من هذا في كل تأليف ، فانه لخير مائة مرة أن يحتال المؤلف لاثبات ما في الحياة من الجد والخير والمعنى ، ولا يحتال مثل هذا الاحتيال لتجريدها من كل جد ومن كل خير ومن كل معنى ، وابرازها في صورة من التفاهة والفهاهة لا يصدقها الا من يريد تصديقها ، وكذلك يفعل الكثيرون من كتاب الغرب في هذه الايام ؛ وكذلك يبدو حتى في القصة الصغيرة أن الحياة والخلود في ضمائر أبناء الشرق العريق شعبتان لا تفترقان .

عبد العزيز البشري